الجزائر الحديثة من خلال الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني

"لابن سحنون الراشدي"

بقلم أ/ حمادو بن عمر

تتناول هذه المداخلة محورا من محاور تاريخ الجزائر الحديث ودوره في الكتابات التاريخية، لأن جل الباحثين والمؤرخين يعتمدون في دراساتهم وبحوثهم على ما كتبه المستشرقون أو ترجموه من المصادر العربية. وأكثر المستشرقين اهتماما بتاريخ العهد التركي هم الأسبان، إذ خصصوا مئات التآليف لهذا العهد ، مازالت خزائن ودور الوثائق بإسبانيا شاهدة عيان على ذلك وقد نشر الكاتب الإسباني RODRIGUEZ MARIN فهرسا لهذه الوثائق يحتوي على 900 صفحة.[1]

وحاولنا في هذه المداخلة التركيز على عنصرين هامين في اعتقادنا أنهما عاملين أساسيين في إماطة اللثام عن جوانب مهمة من تاريخنا. وعليه فإن هذين العاملين يكمنان في:

-التنويه بمحقق الكتاب(الشيخ المهدي البوعبدلي) ودروه في الحفاظ على تراثنا العربي الإسلامي.

-التعريف بالمنظومة والمنهج الذي اتبعه المؤلف في كتابه، وما احتوت عليه المنظومة من مواضيع رئيسية وأخرى ثانوية.

مقتطفات عن حياة الشيخ المهدي البوعبدلي(كرونولوجيا حياته):

الشيخ المهدي البوعبدلي بن أبي عبدالله البوعبدلي من مواليد سنة 1907م بقرية كانت تعرف آنذاك باسمها الفرنسي" سان لوي "وهو الولد الرابع لأبيه بعد بنتين وولد. أبوه أبو عبد الله البوعبدلي ولد سنة 1868م بعرش بني خلاد من بلاد ترارة الجبلية.أما نسبة والده فهي تتصل بسيدي عبد الله دفين شلف (وادي أرهيو) والذي عرفه أبو راس الناصر المعسكري وأشاد بذكره وعلمه وورعه وذكر قصيدته المهملة الشهيرة التي تحوي" اثنين وسبعين بيتا ليس فها حرف معجم...".وأبو عبد الله ينحدر من أسرة علمية عرفت بالتقى والصلاح، وجدت بجبال الونشريس(دويلة بني توجين). وقد استوطن أبوه محمد بن واضح مدينة شلف، وقد نوه بذكره أيضا الشيخ أحمد بن يحي الونشريسي في معياره قائلا:" أبو البركات القاضي الأعدل الصالح بلينا وقريبنا توفي سنة ست وخمسين وثمانمائة " كما نقل ترجمته الشيخ أحمد بابا التنمبكتي في كتابه " ذيل الديباج " وذكر الجدين الثالث والرابع للشيخ أبي عبد الله الشلفي الشيخ موسى بن عيسى المغيلي المازوني في كتابه صلحاء الشلفيين".

أما والدة الشيخ المهدي فهي من قرية بطيوة التي سكنتها أسر من نبي سعد المغربية الريفية وقد جاءت مناصرة لأمراء بني مرين إبان احتلالهم

لتلمسان ثم مازونة وانتصارهم على بني زيان في الكرة الثانية بعد فشل حملتهم الأولى التي بنوا خلالها مدينة ومسجد المنصورة، وما زال معظم سكان بطيوة من أحفاد هذه الأسر.

وقد كان جد والد المهدي البوعبدلي واحدا من جماعة كانوا رفقة الأمير عبد القادر طيلة جهاده ومقاومته أطوارها إلى أن انتهت الحرب ونقل الأمير إلى فرنسا فرجع الجد وهو محمد بن الجيلالي الموهوب إلى أهله أولاد سيدي الموهوب فوجد زوجته قد توفيت وخلفت له ولدا واحدا هو عبد القادر أب والد الشيخ المهدي البوعبد لي وارتحل معه إلى جبال ترارة رفقة عدد من رفاقه في الجهاد واعتصموا بوعورة شعابها ووديانها وكثافة غاباتها. هذا باختصار حول التعريف بأسلاف الشيخ المهدي البوعبدلي.

حياته العلميـــة:

تعلم الشيخ المهدي البوعبدلي[2] مبادئ القراءة والكتابة في مسجد أبيه، كما تعلم بالمدرسة الفرنسية ببلده سافر بعدها طالبا العلم إلى مازونة المعروفة آنذاك بمدرستها الفقهية المنتسبة للشيخ أبي راس الناصر والمتخصصة في تدريس مختصر السيد خليل في الفقه دراسة واتفاقا وتحقيقا.

وبعد سنتين من الأخذ والعطاء على أجل مشايخ مازونة أمثال الشيخ محمد بن عبد الرحمن والشيخ سيدي أحمد الكفيف نجل الشيخ أبوراس الصغير، تخرج الشيخ المهدي البوعبدلي وكانت قبلته بعد ذلك إلى جامع الزيتونة بتونس وما عرف عنه هناك أنه كلن طوال حياته حسن السلوك، طيب المعاشرة مترفعا عن كل ما من شأنه أن يخل بمروءة الرجل الشريف وعلو همته.

وقد كان الشيخ المهدي البوعبدلي من جملة الطلبة المؤسسين لأول جمعية للطلبة الجزائريين بتونس وعين كأول رئيس لها. لكنه تنازل في الرياسة لمن هو أدم منه في الطلب وأكبر منه في السن واكتفى بمساعدته له في نشاطه وعمله.

وبعد رجوعه من تونس دعي الشيخ المهدي لتولي رئاسة تحرير جريدة الرشاد أسسها 1936م جمعية مشايخ الزوايا وأسندت إدارتها للسيد عبد القادر الفاسي فمكث بالعاصمة بضع شهور. وسرعان ما وجد نفسه في وضعية حرجة وهو ما جعلته يتوّجه مع فلاة الجدال والتناوش العقيم وهو ما دفعه بالانسلاخ منها. وترك عمله ومن ثم مغادرة العاصمة. وبعد مدة قضاها ببطيوة شغر منصب إمام بالجامع الكبير بوهران. بعدها عين إماما بالمسجد العتيق بوهران بعد إجرائه الامتحان. ومنه نقل بعد أشهر قليلة إلى نفس الوظيفة ببجاية عاصمة الحفصيين، فعين مفتيا 1943م خلفا للشيخ حسن أبو لحبال العالم الكبير الذي عين هذا الأخير بوهران وتوفي بها. تولى رئاسة الجمعية الخلدونية المشرفة على تشييد وتسيير مدارس التعليم العربي الحر، كما عين على رأس هيئة أسسها أهل البلد وأعيانها للأعمال الخيرية.

دوره في إحياء التراث الإسلامي والحفاظ عليه:

وتكمن محافظة الشيخ المهدي البوعبدلي في الحفاظ على ذاكرة الأمة باقتناء نفائس المخطوطات وذخائر الكتب القيمة من مختلف أنحاء العالم العربي الإسلامي والغربي(المسيحي).

ومن جملة هذه المكتبات: مكتبة الشيخ القلي التي كانت تحوي على مخطوطات نفيسة جدا مثل مخطوط البخاري الذي كتب عليه مالكه الأمير عبد

القادر بعض التقييدات وكتب في الصفحة الأخيرة ما نصه:"ختمت البخاري أربع مرات بعضها رواية وبعضها دراية وشهر محرم في الخامسة وأنا محاصر يتلمسان عجل الله بفتحها وأعادها دار إسلام بجاه البخاري وأمثاله ءامين"[3].

مكتبة الشيخ البشير المحمودي بالبرج والتي كانت تحوي هي الأخرى ذخائر قيمة ونفيسة من المخطوطات التي تشمل ميادين مختلفة: كالتفسير والفقه والتصوف والتاريخ وغيرها. ونلفت انتباه الباحثين إلى أن الشيخ البشير محمودي[4] هو الذي زود الشيخ المهدي بالجزء الثاني من كتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. ويشهد على ذلك مراسلاته المتعددة والمتبادلة بينهما.

مكتبة الشيخ عبد القادر بن يسعد بالقلعة(قلعة بني راشد) والتي كان الشيخ المهدي يتردد عليها كثيرا، وتنقيبه عن أنفس الذخائر بها.

وفي شأن المخطوطات والبحث عنها يقول الشيخ المهدي:"...وكنت أتردد على أحد باعة الحروز فيعرض علي كلما كان ينتهي عنده من كتب مخطوطة فأشريها منه، حتى صار بعض رفقائي يبتعدون مني".

وكانت أولى تجاربه مع الإذاعة الجزائرية خلال الأربعينيات حين طلب منه تقديم محاضرات في التاريخ والثقافة التي كان يسمع صداها في النادي الإسلامي آنذاك، وكانت أول محاضرة ألقاها في موضوع حياة ابن خلدون على الخروبي. ثم نقلت إلى الفرنسية وطبعتها كلية الآداب على نفقتها.

ولقد كان الشيخ المهدي البوعبدلي بضرب مواعيد مع أرباب الخزائن المخطوطات القديمة فترة يقضي معظم أوقاته بين أكوام المجلدات والأوراق

المغبرة التي قد أتى على أكثرها الإهمال والرطوبة والأرضة، وهو ينتقل تارة ويستعبر تارة أخرى ما يراه ذا فائدة.

وكما هو معروف عن الشيخ المهدي أنه مؤرخ شمولي لم يقصر اهتمامه لى فترة معينة من تاريخ الجزائر على حساب فترة أخرى، فنجده يتناول التاريخ من زواياه المختلفة، ولعل هذه النظرة الشمولية التي اختص بها ترجع إلى أنه كان يملك من الوثائق والمراجع التاريخية ما يعينه على مسح فترة طويلة من التاريخ الجزائري ولعلها تعود أيضا إلى عكوفه على المضي إلى جمع كل ما يصل يده من وثائق ومراجع تاريخية بشتى الطرق والوسائل، واطلاعه عليها بتمعن وإحكام ونظر ثاقب دون كلل وملل.

ونشير إلى أن الشيخ المهدي ألف كتابا عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني بالاشتراك مع الدكتور ناصر الدين سعيدوني، حيث سلطا الضوء فيه على كثير من الحقائق التي كانت غامضة آنذاك.

مميزات الشيخ المهدي البوعبدلي في عرض الأحداث التاريخية:

من بين المميزات التي تميزت بها طريقته في عرض الأخداث التاريخية نذكر ما يلي:

1- عند عرضه للكتابات التاريخية فإنه يعرضها بأسلوب شيق وواضح، ليس فيه غموض، لا تعقيد فيه، يتحاشى فيه الإطناب المخلل بالفكرة، لا يستعمل الدارجة أبدا في كل ما يكتب، بخلاف بعض المؤرخين، بخلاف بعض المؤرخين. وتتجلى الصورة بوضوح في قوله:« فلنكتف بهذا الموجز من بيان ما أبهم من حياة مترجمنا الذي غادر تلمسان كما غادر قبلها فاس خائفا يترقب

إلى أن ختم به المطاف بمدينة غرناطة...ولهذا نختم ترجمته بإحدى قصائده، بث بها نجواه وذكر معالمها واحدا واحدا » .

2- شمولية التناول التاريخي: وذلك بحديثه عن كل منطقة من مناطق القطر الجزائري، فنجده مثلا يؤرخ لأحداث منطقة وهران وقسنطينة، وأحداث القبائل، وأحداث الصحراء، فلو ألقى المرء نظرة على ما كتبه الشيخ المهدي من مقالات تاريخية أودعها مجالات جزائرية، لوجدها تمس شؤون الوطن. وهذه ميزة قلما نجدها عند مؤرخ آخر.

3- في اعتماده على عملية التوثيق في تدوينه للوقائع التاريخية سواء ما اتصل منها بالأحداث أم بالأشخاص، فلا يقدم على كتابة أي حدث تاريخي دون الرجوع فيه إلى وثائق معتمدة تاريخيا، ولا نجده يلقي أحكاما جزافا، كما أنه في بعض الأحيان يسلك سبيل الترجيح والمقارنة وتصحيح ما يستحق تصحيحه.

4- جعل دراسته للتاريخ غرضا واضحا الجوانب المجهولة من تاريخ الجزائر وإماطة اللثام في بعض الأعلام ممن شحت المادة التاريخية بذكرهم.

فهو يقول مثلا في مقال له نشر بمجلة الأصالة ع26 أوت 1975م بعنوان تلمسان عبر التاريخ:"إن الجوانب المجهولة من ترجمتها- أي عبد الله بن خميس(650-708هـ) وأحمد المقري(686هـ-1041م) تركت الباحثين الذين حاولوا إماطة اللثام عن شخصيتها الغامضة وخصوصا ابن خميس في متاهات التناقض والاضطراب والالتجاء إلى التكهنات كل ذلك مرده إلى نقص المراجع واحتياج الوجود منها إلى البيان والتوضيح كما ذكر بعضهم.

5- وقوفه ضد مؤرخي الاستعمار الذين تعمدوا تشويه التاريخ الجزائري الأصيل، والتنقيص من عظمة السكان الأصليين، والإشادة بدوره ومكانة الرومان، فراحوا يضخمون من ضجة الاحتلال الروماني ويشيدون بدوره الحضاري متناسين الحقبة الإسلامية فلا يشيرون إليها إلا إشارات سريعة، زاعمين إن الإسلام فرض على سكان الجزائر كرها، لينتهوا في الأخير إلى الحديث المسهب عن فترة الاحتلال الفرنسي فيصفونها بكل أوصاف المجد والعظمة وينسبون إليها مهمة التحضير والتمدين لشعب منحط متخلف جاهل ومريض، هذه النظرة الذاتية لهؤلاء المؤرخين فندها الشيخ المهدي بقلمه وبحجته الدامغة.

6- استخدامه الثقافة الدينية ومعرفته اللغوية في تصحيح بعض المصطلحات أو المفاهيم جعلته يتبوأ من رجاحة العقل والعلم مقعدا.

التعريف بالمنظومة ومنهج المؤلف في ذلك:

تقع المنظومة في اثنين وسبعين بيتا(72)، مختلفة القافية، فنجد صاحب التأليف يذكر الغرض من تأليف المنظومة قائلا:"هذا وإني قد خدمت حضرته الفخيمة وأعتابه الكريمة بقصيدة أرجوزة سهلة الألفاظ أوشكت أن تطرب الميت وإذا جليت معانيها كادت أن تنوب على السراج في البيت ومن بديع شرها أنه لا حشو فيها أحتاج إلى الاعتذار عنه وبأنه تتميم للبيت، ذكرت فيها محاسنه الجهادية وأيامه الجلادية، وكيفية توصله إلى هذا الثغر الذي تقاعدت عنه الملوك...وتدوين بعض محامده ومفاخره...وهو الذي وجد مآثر

الين دائرة فأقامها. وعين الجور متيقظة فأنامها...ومدارس العلم دارسة فأحياها".

ويواصل في ذكر أسباب ودواعي تأليفه لهذا الكتاب قائل:" ثم إني علمت أن لسان النظم حصوره،...والنثر أشد منه بيانا، إذ به يصير الخبر عيانا، وبتذييل النظم به تزداد عباراته تبيانا. فعزمت على أن أشرح تلك القصيدة شرحا يبين ألفاظها ويجلي على منصة الظهور أغراضها...وقد سميت هذا الصوان المحتوى على لبابه، والمليح المشتمل بثيابه، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني". ويذكر ابن سحنون أن العلامة السيد اليبدري ابن حامد لما وقف على تأليفه أعطاه اسما"الدر والعسجد في مناقب الباي أحمد".

ويمكن تقسيم موضوعات ابن سحنون في كتابه الثغر الجماني إلى موضوعات رئيسة وأخرى ثانوية:

من الموضوعات الرئيسية نذكر على سبيل المثال:

الفتح الأول لوهران على يد بكداش باشا عام: 1119هـ

الفتح الثاني على يد الباي محمد بن عثمان عام 1206هـ/ 1792م

الإشادة بالباي بن عثمان .

ونشير بالنسبة للفتح الأول[5] أن هناك بعض الكتاب الذين نوهوا بهذا الفتح فأفردوا له عدة تآليف وملاحم وقصائد وصلنا منها ما جمعه العالم الأديب محمد بن ميمون الجزائري وسماه التحفة المرضية في البكداشية في بلاد الجزائر المحمية" والذي ترجم فيه للباشا الفاتح، ثم كتاب"بهمة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين من الأعراب كبني عامر" للشيخ عبد القادر

المشرفي، حصة للمتعاونين مع العدو(الإسبان) ثم شرح أرجوزة الخلفاوي للرحالة عبد الرحمن الجامعي الفاسي، الذي ساهم المهنئين للباشا بكداش في الفتح بقصيدة بليغة.

أما الذين خصصوا تآليفهم للفتح الثاني والأخير[6] الذي وقع على يد محمد بن عثمان، فهم المؤرخ محمد أبو راس الناصر المعسكري في تأليفه عجائب الأسفار ولطائف الأخبار وكذلك كتاب الحلل السندسية في فتح وهران والجزيرة الأندلسية، ومحمد بن عبد الله الدحاوي في" الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"، مسلم بن عبد القادر الوهراني، في"أنيس الغريب والمسافر"، ابن يوسف الزياني"دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران".

وأحمد بن سحنون الراشدي في كتابه الثغر الجماني الذي هو موضوع مداخلتنا فهو يعد من أهم ما ألف في ذلك العهد(العهد التركي)، فهو عبارة عن مذكرات دونها مؤلفها الذي كان يعيش في بلاط الباي، وكان يلازم ولده ولي عهده. والكتاب في حد ذاته تصوير للحالة التي آلت إليها البلاد آنذاك على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية من فتن داخلية كثورة درقاوة وأوبئة وزلازل وركود ثقافي إلا نزر قليل.

ويتجلى لنا ذلك من خلال قول المهدي البوعبدلي:" هذه صفحات من تاريخ الجزائر في العهد التركي، ذكرناها مبعثرة تعرضنا فيها للثورات المتكررة في العهد التركي خاصة ثورة درقاوة وما تركته من آثار سيئة، وقد خصها أبو راس بتأليف فريد سماه"درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة" حيث تكلم

بإسهاب عن أهم أسباب هذه الثورة وما انجرت عليه من آثار سلبية على الخاص والعام حتى العلماء لم ينجوا منها واتهموا بالحيازة إليها.

ويضيف السيد حمدان بن عثمان خوجة صاحب المرآة: "أنه يستحسن الحكم التركي مع اعترافه بمواطن الضعف والغلطات التي ارتكبت في عهد الدايات، ويرى أن سببها هو مخالفة الدايات للنظم أو لدستور مؤسس الحكم التركي بعد انضمامهم للخلافة العثمانية".

وإذا أمعنا النظر واستعملنا نظر ذلك الزمان. نجد أن هذه الاضطرابات لم تكن حظ الجزائر وحدها، بل كانت موزعة على كثير من بلاد العالم الإسلامي.

ومن بين الموضوعات الرئيسية كذلك دور محمد بن عثمان الكبير في هذا الفتح، حيث الجد ابن سحنون يصور الحدث قائلا:" تقدم أنه خرج في الثالث من رمضان من مقر حكمه وفي خروجه أوائل هذا الشهر الذي اشتهرت فضائله، وقويت على سعده دلائله...ثم ارتحل إلى تليلات وهو نصر بينه وبين وهران مسيرة ضحوة، ثم إلى الموضع المشهور بمولان فيما بينه وبين وهران فمكث هناك يدبر أمره...ثم أنه أصبح يجر مدافعه وجميع آلاتها إلى الجبل ...فأوصلوها يومئذ قبالة مقر الطلبة ورجعوا...وفي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من رمضان. جر إليه مدافعه وناشبت القتال يومئذ ضحوة فحمي الوطيس واشتعلت النار من كل جهة، ورمى الكافرون يومئذ سبعمائة مدفع وبونية... ورمى المسلمون اثنين وسبعين مدفعا بمدفعين فقط...أنه دخل في

الرابع من رجب سنة ست أي 1206هـ/1792".[7] هذا باختصار شديد عن فتح وهران وتصوير شاهد العيان ابن سحنون لأحداث هذا الفتح العظيم.

أهم الموضوعات الثانوية فتشمل:

1-ذكر بعض تراجم العلماء والأولياء: كالشيخ الهواري، وإبراهيم التازي، الشيخ بلقندوز، الباي بن عثمان، صلاح الدين الأيوبي.

2-ذكر مسألة الرباط والفداء.

3- الحديث عن البربر ونسبهم.

إن تأليف الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني يعد بحق أهم وأنفس الذخائر القيمة فيما ألف في أواخر العهد العثماني بالجزائر، فهو يصدر كما ذكرنا آنفا الحالة التي آلت إليها البلاد آنذاك ودور محمد الكبير في استدراج الموقف قبل فواته وحصول الفتح العظيم، فهو بذلك يجلى حقائق تاريخية عن العهد التركي بالجزائر وإماطة اللثام عن جوانب كثيرة منه بسبب اكتناف الغموض له.

وهو ما دفع جل الباحثين دراسة هذه الفترة من تاريخ الجزائر بالاعتماد على ما كتبه المستشرقون أو ترجموه من المصادر العربية، وأعني بذلك الإسبان الذين خصصوا مئات التآليف لهذا العهد، ومازالت خزائن الوثائق في إسبانيا مملوءة بها. والسؤال المطروح إلى متى تظل هذه الوثائق والمخطوطات حبيسة الجدران.

الهوامش:

1- Rodriguez Marin : Guia historica y descriptiva de los archivees, bibllotéchas y -muscos- arquologicos de Espana : archlos historicos Madrid (surprenta de la Bovista de archios 1916n :827 p.

*) سيرة الشيخ المهدي البوعبدلي، بقلم أخيه الشيخ عياض المتصرف الحالي في الخزانة، ص ص:01- 13

2) ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي، الجزائر،1975. ص:5

3) راجع: عبد الرحمن بن زيان، المهدي البوعبدلي، المؤرخ والفقيه، " مجلة أعلام وهران "، ع7، 1999. ص ص: 7-12

4) سيرة الشيخ المهدي البوعبدلي، المرجع السابق،ص:6

5) وثائق مخطوطة عبارة عين مراسلات بين الشيخ المهدي البوعبدلي والشيخ البشير محمودي (مخطوطات خاصة)

6) من المصادر التي تناولت هذا الفتح: محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في البكداشية في بلاد الجزائر المحمية"

أنظر: للشيخ عبد القادر المشرفي ، "بهمة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين من الأعراب كبني عامر"

عبد الرحمن الجامعي الفاسي، شرح أرجوزة الخلفاوي .

7) من المصادر التي تناولت هذا الفتح:

محمد أبو راس الناصر المعسكري ،عجائب الأسفار ولطائف الأخبار

الحلل السندسية في فتح وهران والجزيرة الأندلسية

الخبر المعرب عن الأمر المغرب الحال بالأندلس وثغور المغرب

محمد بن عبد الله الدحاوي " الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"

مسلم بن عبد القادر الوهراني، "أنيس الغريب والمسافر"

ابن يوسف الزياني البرجي"دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران".

8)) المهدي البوعبدلي، مقتطفات من تاريخ الجزائر في العهد التركي، " مجلة الأصالة "، الجزائر، ع1975،25. ص:17